جامعة بغداد كلية التربية للبنات قسم اللغة العربية
المرحلة الثالثة/ الصباحي.
المادة: النقد العربي القديم.
د. صلاح كاظم هادي

الجزء الأول

الألفاظ والمعاني عند الجاحظ

ثنائية اللفظ والمعنى في التراث الفكري العالمي

إن ثنائية اللفظ والمعنى - أو اللغة والفكر - ثنائيةٌ إنسانية بامتياز، لا ترتبط بثقافة دون أخرى، وليس أدلَّ على ذلك مِن أن اللغة أو الفكر الذي يعبَّرُ عنه من طرف هذه اللغة، من بين ما تتقاسمه البشرية جمعاء، ولا يقتصران على فكر وحدَه، ومن باب المنطق الزمني يبقى التراث الفكري الغربي أوَّلَ من أثار هذه القضية ، وإن كنَّا في الحقيقة لا ننفي أن تكون جذور القضية أبعد من ذلك، ما دام تاريخ الإنسانية على وجه البسيطة لا يبدأ مع الإنسان اليوناني.

والذي لا شك فيه أن الحديث عن قضية اللفظ والمعنى في التراث الغربي لا يستقيم إلا بالرجوع إلى أحد أعلام الفلسفة اليونانية (أفلاطون)، الذي ذكر هذا الجانب - كما نقل ذلك صاحب كتاب "في نظرية الأدب" شكري عزيز الماضي - خلال حديثه عن المحاكاة.

لقد رجَّح أفلاطون كِفَّة المعنى؛ حيث قال بأسبقية الوعي على المادة، "وينطلق في هذا من إيمانه واستناده إلى الفلسفة المثالية، التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة"، فالمعاني والأفكار - حسب أفلاطون - هي الأسبق، وهي الحقائق المطلَقة التي لا يرتقي الشك إليها، وهي الموجودة في عالَم المُثُل، في حين أن الألفاظ لا تمثل عنده سوى محاكاةٍ لِما هو موجود في عالم المُثُل من أفكار ومعانٍ، ولهذا السبب، فالألفاظ عند أفلاطون تبقى ناقصةً وبعيدة عن الحقيقة، وإلى ذلك أشار بقوله: "إن عمل الأديب يُشبِه عمل المرآة؛ أي إن محاكاتَه للأشياءِ والظواهر آليةٌ فوتوغرافيةٌ؛ أي حرفية، ولذلك فهو لا يقدم سوى صورٍ مزيفة لا حاجة لنا بها؛ لأن ما نحتاجه وينفعنا هو الأصل لا الصورة"

إن أفلاطون - من خلال هذا النص - يجعل الأصل والصورة في مقابل المعنى واللفظ، فاللفظ لا يُمثِّل سوى صورةٍ للمعنى الأصل، وعليه فإن الألفاظ لا يمكن أن تصل إلى مرتبة المعاني الأصول.

وقد ذهب "أرسطو"، إلى التوفيق بين اللفظ والمعنى؛ حيث نقض المعادلة التي تجعل الأصل والصورة في مقابل المعنى واللف؛ حيث ذهب إلى أن اللفظ لا يمثل صورة الأصل (المعنى)، بل أصل كذلك؛ لأن الطبيعة بطبيعتها ناقصة، والشعر أو الفن هو ما يتمم ما بها من نقص.

أسباب ظهور نظرية اللفظ والمعنى عند العرب

لقد ذكرنا في المحاضرة السابقة أنّ الاتجاه الشعري الجديد ولّد حركة نقدية كبيرة ، وبدأت نشاطات التدوين والتحليل والحكم على الشعر والشعراء ، وكذلك كانت هناك أسباب أخرى للتوجه نحو التفكير في قضية الألفاظ والمعاني ، ويمكن تلخيص هذه الأسباب كالآتي:

1- البحث في أسرار البيان ، سواء في النصوص القرآنية أو النصوص الإبداعية الشعرية ، ومحاولة الإجابة عن السؤال التقليدي ، هل يكمن سر الجمال في الألفاظ أم في المعاني ؟ أم يكمن في العلاقات بينهما؟

2- أن فكرة الثنائيات والحدود الفصلة بينها ، وإيجاد حلول وسط بينها هي جزء من فكر المعتزلة اللذين أسسوا فكرة الحسن والجمال والعوامل الوسط بينهما ، وثنائية الحق والباطل والمنزلة بين المنزلتين.

3- اتصال النقد والنقاد بعلوم اللغة نحوا ودلالة وبمعارف معجمية مثل معجم العين للخليل 1171هـ ، لظهور كتب النحو مثل كتاب سيبويه 180هـ وكتاب المقتضب والكامل للمبرد 285هـ. فضلا عن تصدي مجموعة من العلماء لرواية الشعر ودراسته والحكم عليه ، كأبي عمرو بن العلاء وأبي اسحق والأصمعي والمفضل الضبيّ والشعبي وظهور الوعي بضرورى دراسة مسألة الإعجاز القرآني ، ولاسيما نقاشها بين الفرق الإسلامية ، وظهور كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

4- الصراع الذى كان يدور بين المتعصبين للعروبة وبين أنصار الشعوبية ، فقد سادت فكرة مؤداها أن الألفاظ للعرب - فالعرب تمهروا فى ذلك ولهم قصب السبق فى اختراع الألفاظ - والمعاني فمن نصيب العجم ؛ مما دفع بعض الباحثين عن الإعجاز في القرآن الكريم إلى العناية بالجانب اللغوي في القرآن بوصفه المظهر الوحيد للتحدي في القرآن الكريم .

5- اختلاف العلماء حول قدم القرآن وخلقه وتعود جذور القضية حول "هل القرآن نزل بلفظه أم بمعناه دون لفظه"

6- /اتصال البلاغيين والنقاد العرب بالثقافات النقدية والوافدة وبخاصة (كتابات اليونانيين فى الشعر) .

7- كان النقد في بداية القرن الثاني للهجرة تحت سيطرة الانحياز للمعاني، ولاسيما المعاني الإسلامية والتوجهات المثالية الأخلاقية، فجاءت فكرة ثنائية اللفظ والمعنى رداً على ذلك الانحياز ، ومن أجل إثبات أثر اختيار الألفاظ في تشكيل الصورة الفنية واثر الصياغة والعلاقة بين طرفي العلامة اللسانية في الإنتاج الفني الإبداعي.

قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ

يتفق معظم الباحثين أن البداية الأولى لقضية اللفظ والمعنى كانت مع الجاحظ (ت255)، "الذي - بالإضافة إلى رأيه في أقسام البيان عامة، وملاحظاته المتعلقة بالظاهرة اللُّغوية... - تمتد تصوراتُه الأسلوبية ومقاييسُه البلاغية في رسوخٍ في نظريته في الكلام...، (التي تقدر أن الكلام هو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد)" ؛ أي إن الكلام ما هو إلا تجلٍ ومظهر عملي تطبيقي للغة المجردة القائمة في نفس الإنسان.

أم يعود إلى المعاني اللطيفة، والأفكار الجليلة التي يتضمنها النص؟ أم الجمال يعود إلى الاثنين معاً: الشكل والمعنى؟.

والمدقق في قراءة كتب النقد العربي لا يكاد يطمئن إلى قول يذهب صاحبه فيه إلى تفضيل أحد العنصرين بمعزل عن الآخر، إلا ويجد لنفس القائل ما يثبت فيه اهتمامه بالعنصر الآخر، وقد يجد في نص ثالث ما يؤكد أنه عُني بالعنصرين مجتمعين معاً، وجعل إجادتهما معاً أساساً للحكم الجمالي. فقد تكلم على حكم الشيخ إبي عمر الشيباني في معرض بيان فرط إعجابه بالبيتين:

لا تَحْسَبَنَّ الموتَ مَوْتَ البلى وإنما الموتُ سؤال الرجال
كلاهما موتٌ ولكن ذا أفظع من ذاك لِذُلِّ السؤال

فوجه الجاحظ نقداً لاذعاً إلى إليه لفرط إعجابه بمعنى هذين البيتين على الرغم من خلو ألفاظهما من الجمال

وقد يبدو أن الشيباني أُعجب بما في البيتين من حكمة ولم يكن معنياً بغير ذلك من الخصائص الشعرية. وبالنسبة للجاحظ الذي كان يرى أن الشعر صناعة من الصناعات؛ فقد انتقد الشيباني لإعجابه بالمعنى فقط دون غيره، ونجد الجاحظ نفسه قد أورد البيتين ضمن أبيات أخرى من شعر الحكمة مما يدل على استجادته لهما. اكنه يرى إنّه لكي يدرك الشاعر أعلى درجات الجودة في الصناعة الشعرية ، إذ قال: "وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي. والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير".

ويقول في "البيان والتبيين": "إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، ممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة" .

ويعبر عن نظرته الجمالية في الشعر فيقول: "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان" .

ومن جهة أخرى، فإن الجاحظ على عكس ما ذهب إليه عددٌ من الدارسين، من أنه من الذين ينتصرون للألفاظ على حساب المعاني، مستندين في ذلك على قولته الشهيرة: (المعاني مطروحة في الطريق)؛ إذ إن الراجح في الأمر هو أن الجاحظَ كان مِن أصحاب المشاكلة والمطابقة بين اللفظ والمعنى؛ وحجَّتُنا في ذلك، هي أن الجاحظ جعل اللفظ والمعنى في مقابل الجسد والروح؛ إذ إن "الأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنٌ، والمعنى للفظ روح".

ولعل أول من أثار مسألة سرّ جمال النصوص وقوتها أو قبحها وضعفها ، هو الجاحظ بمعالجته ثنائية اللفظ والمعنى بطريقة مكثفة فى كتابيه الحيوان والبيان والتبيين فهو يتحدث عن هذه القضية فى إطار نظريته عن البيان إذ يرى فى مقدمة كتابه البيان والتبيين أن هناك عيبان يلحقان بالكلام :

الأول : سماه "السلاطة والهذر"

والثاني: أطلق عليه "العيّ والحصر"

ويقصد بالسلاطة والهذر :كثرة الكلام بلا فائدة، ويقصد بالعيّ والحصر: عجز الكلام عن أدا المعنى.

فالأول زيادة في الألفاظ والثاني عجز في الألفاظ عن أداء المراد، والحد المتوسط الذى تؤدى فيه الألفاظ المعاني المرادة تأدية كاملة فقد أطلق عليها الجاحظ اسم " البيان"، ويفرق الجاحظ بين عنصرين ويفصل بينهما منهجياً أو يفصل بينهما فصلاً فكرياً تجريدياً، والحقيقة أنه لا يوجد فصل بينهما لأنهما كوجهي الورقة متلازمان في الوجود، وهذان العنصران هما :

1- الألفاظ :وهى أصوات يجرى بها اللسان .

2- المعاني : تصور وتخيل في الخواطر والأذهان.

ويقسم الجاحظ درجة قيام الألفاظ بالمعاني ثلاثة أقسام :

أ- هذر : وهو سلاطة وزيادة وتشدق ومحاولة تأثير بالألفاظ.

ب- بيان : قيام الألفاظ بأداء المعاني تامة من دون نقص.

ج- حصر فينشأ عن نقصان آلة الكلام أو عدم التمييز أو انعدام الترتيب.

فالمعاني كما يقول الجاحظ : محدودة مبسوطة إلى غير غاية ، ويعرفها كلاً من العربي والعجمي والحضري والبدوي.

والمفاضلة عند الجاحظ تكون في الألفاظ لأنها محدودة محصورة. ويوضح الجاحظ بأن أحسن الكلام "ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه" ، ويذهب الجاحظ إلى تقسيم اللفظ والمعنى تقسيماً جديداً فيقول :

اللفظ : منه الحقير ومنه الشريف.

والمعنى: منه الساقط ومنه الكريم.

وهنا يظهر لنا أربعة أنواع من الكلام عند الجاحظ وهى :

1- فاسد اللفظ ساقط المعنى .

2- شريف اللفظ كريم المعنى .

3- شريف اللفظ ساقط المعنى.

4- ساقط اللفظ كريم المعنى.

و أورد مثالاً ذكره الجاحظ عن فساد اللفظ إذ يقول :

"فهذا رجل نحوى يروى عنه الجاحظ أنه ذهب يشكو رجلاً للأمير في دينٍ كان عليه :

فقال النحوى :أصلح الله الأمير لي عليه درهمان ، فقال خصمه لا والله أيها الأمير إن هي ثلاثة دراهم لكنه أراد أن يتشادق بالإعراب فجعلها مثنى وترك حقه"

ومثال أورده عن فساد المعنى :

"يحكى أن رجلاً يقال يسمى أبا السرايا ذهب إلى الغداء على مائدة سليمان بن عبد الملك ، فقيل له وهو جالس يأكل بجوار سليمان :

كل من كلية هذا الجدى فإنه يزيد الدماغ ، فقال أبو السرايا: لوكان هذا هكذا لكان رأس الأمير مثل رأس البغل"